(1)

محاسبة النفس

الحمد لله رب العالمين، القائل في كتابه العزيز :{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}، وأَشهدُ أنْ لاَ إلـهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ علَيه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ، **وبعد** :

فلقد خلق الله الخلق بحكمته، وأسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة، وضمن لهم أرزاقهم، وأنزل إليهم الكتب، وأرسل إليهم الرسل، وجعل مدة تكليفهم في الدنيا بانتهاء أعمارهم، وجعل جزاءهم على إحسانهم في الدنيا خلودًا دائمًا في جنة عرضها السموات والأرض، حيث ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر .

والأيام تمر إثر الأيام، والأشهر تجري وراء الشهور، والسنون تتلوها السنون، فتنقضي الأعمار، وتفنى الأجيال جيلًا بعد جيل، ويقف الإنسان بين يدي الله (عز وجل) للحساب والسؤال عن القليل والكثير، والصغير والكبير، والنقير والقطمير، حيث يقول الحق سبحانه:{وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَاوَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا}، ويقول سبحانه على لسان لقمان (عليه السلام) لابنه :{يَابُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ} فكيف يفرحُ بمرور الأعوام مَن يومُه يهدم شهرَه، وشَهْرُه يهدم سنتَه، وسنتُه تهدم عُمرَه؟! كيف يفرح مَن يقودُه عُمرُه إلَى أجلِه، وحياتُه

إلى موتِه؟ مالم يكن ذلك بطاعة الله وعمارة الكون :

إنا لَنفرَحُ بالأيام نقطعُها *** وكلُّ يوم مضى يُدني من الأجل

فاعملْ لنفسك قبل الموت مجتهداً *** فإنما الربح والخسران في العمل

قَالَ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: «ارْتَحَلَتِ الدُّنْيَا مُدْبِرَةً، وَارْتَحَلَتِ الآخِرَةُ مُقْبِلَةً، وَلِكُلٍّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا بَنُونَ، فَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الآخِرَةِ، وَلاَ تَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا، فَإِنَّ اليَوْمَ عَمَلٌ وَلاَ حِسَابَ، وَغَدًا حِسَابٌ وَلاَ عَمَلٌ».

إن العاقل من أدرك بعين البصيرة أنه لا ينجيه من حساب الله في الآخرة إلا لزوم ودوام المحاسبة لنفسه، وصدق المراقبة لله (عز وجل) في الدنيا، فمن حاسب نفسه في الدنيا، خف يوم القيامة حسابُه، وحَسُن منقلبه، ومن أهمل المحاسبة ربما دامت حسراته، وخاب وخسر، قال وهب بن منبه: " حق على العاقل أن لا يُشغل عن أربع ساعات، ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يفضي فيها إلى إخوانه الذين يخبرونه بعيوبه، ويصدقونه على نفسه، وساعة يخلو بين نفسه وبين لذاتها فيما يحل ولا يحرم، فإن هذه الساعة عون على الساعات وإجمام للقوة"، وكان عمر (رضي الله عنه) يقول: (حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا، وَزِنُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُوزَنُوا، وَتَجَهَّزُوا لِلْعَرْضِ الأَكْبَرِ، وَإِنَّمَا يَخِفُّ الْحِسَابُ يَوْمَئِذٍ عَلَى مَنْ حَاسَبَ نَفْسَهُ فِي الدُّنْيَا).

معنى محاسبة النفس: ألا يُقدم المكلف على قول أو فعل قبل أن يسأل نفسه هل هو مباح، أو حرام أو مكروه؟ حتى لا يقع في مغبّته يوم القيامة، فإن فاته ذلك لعذر ما، فعليه أن يجعل لنفسه ساعة من ليل أو نهار يحاسب فيها نفسه على ما قدّم من

أقوال وأفعال، فإن وجد خيرًا حَمِدَ الله (عزّ وجلّ) وسأله التوفيق والمزيد، وإن وجد غير ذلك فليستدرك ما كان منه من تقصير، يقول الماوردي في تعريفه للمحاسبة: "هي أن يتصفّح الإنسان في ليله ما صدر من أفعال نهاره، فإن كان محموداً أمضاه وأتبعه بما شاكله وضاهاه، وإن كان مذموماً استدركه إن أمكن، وانتهى عن مثله في المستقبل." وقال الحارث المحاسبي: "هي التثبّت في جميع الأحوال قبل الفعل والترك من العَقد بالضمير، أو الفعل بالجارحة، حتى يتبيّن له ما يفعل وما يترك، فإن تبيّن له ما كره الله (عز وجل) جانَبه بعَقد ضمير قلبه، وكفّ جوارحه عمّا كرهه الله (عز وجل)، ومَنَع نفسه من الإمساك عن ترك الفرض، وسارع إلى أدائه".

لقد أمر الله (عزّ وجلّ) عبادة بالوقوف مع أنفسهم وقفة صادقة، ومحاسبتها على ما قدمت بين يدي الله (عز وجل)، فقال تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}، أي: لينظر أحدكم أيَّ شيء قدم؟ عملًا صالحًا ينجيه؟ أم طالحًا يوبقه؟، كما أقسم سبحانه وتعالى بالنفس التي تحاسب نفسها، وتلومها؛ إكرامًا لها، فقال تعالى:{لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ*وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ}،قال الفراء: ليس من نفس برة ولا فاجرة إلا وهي تلوم نفسها ،إن كانت عملت خيرا قالت: هلا ازددت، وإن عملت شرا قالت: يا ليتني لم أفعل. وقال الحسن البصري: هي النفس المؤمنة، فإن المؤمن ـ والله ـ ما تراه إلا يلوم نفسه، ما أردت بكلامي؟ ما أردت بأكلتي؟ وإن الفاجر يمضي قدمًا لا يحاسب نفسه ولا يعاتبها، وإن الغافل لا يلوي على أي شيء فعل ، ولا يكترث بما اكتسب أو مما اكتسب .

كما أن محاسبة النفس من هدي النبي(صلى الله عليه وسلم) ، حثنا عليه (صلى الله

عليه وسلم) حيث قال: (الكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ المَوْتِ، وَالعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ)، وعن ابن عمر (رضي الله عنهما) قال: كنت مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، فجاءه رجل من الأنصار، فسلّم على النبي (صلى الله عليه وسلم)، ثم قال: يا رسول الله أي المؤمنين أفضل؟. قال: (أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا). قال: فأي المؤمنين أكيس؟. قال: (أَكْثَرُهُمْ لِلْمَوْتِ ذِكْرًا، وَأَحْسَنُهُمْ لِمَا بَعْدَهُ اسْتِعْدَادًا، أُولَئِكَ الْأَكْيَاسُ)، وكما حثنا عليه (صلى الله عليه وسلم) بقوله ، كان قائمًا به بفعله ، فعن عقبة بن الحارث (رضي الله عنه) قال: صليت مع النبي (صلى الله عليه وسلم)العصر، فلما سلّم قام مسرعًا دخل على بعض نسائه، ثم خرج ورأى ما في وجوه القوم من تعجبهم لسرعته، فقال: (ذَكَرْتُ وَأَنَا فِي الصَّلاَةِ تِبْرًا عِنْدَنَا، فَكَرِهْتُ أَنْ يُمْسِيَ ـ أَوْ يَبِيتَ عِنْدَنَا ـ فَأَمَرْتُ بِقِسْمَتِهِ) .

ولقد كان الصحابة والتابعون (رضوان الله عليهم أجمعين) يتحلون بهذا الخلق العظيم ، فقد كانوا محاسبين لأنفسهم، وكانوا يحثون بعضهم بعضًا على الالتزام به، فعن حنظلة الأسيدي (رضي الله عنه) قال: لقيني أبو بكر، فقال: كيف أنت؟ يا حنظلة قال: قلت: نافق حنظلة، قال: سبحان الله ما تقول؟. قال: قلت: نكون عند رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، يذكرنا بالنار والجنة، حتى كأنا رأي عين، فإذا خرجنا من عند رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات، فنسينا كثيرًا. قال أبو بكر: فو الله إنا لنلقى مثل هذا. فانطلقت أنا وأبو بكر، حتى دخلنا على رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، قلت: نافق حنظلة، يا رسول الله فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): (وَمَا ذَاكَ؟). قلت: يا رسول الله نكون عندك،

تذكرنا بالنار والجنة، حتى كأنا رأي عين، فإذا خرجنا من عندك، عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات، نسينا كثيرًا فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي، وَفِي الذِّكْرِ، لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلَائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ، وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً)ثلاث مرات . فهذه محاسبة إيجابية للنفس، وسعي صادق لحفظ القلب وكمال الإيمان. قال الحسن البصري: رحم الله عبداً وقف عند همه(أي عزمه على أداء الفعل)، فإن كان لله مضى، وإن كان لغيره تأخر . قال الله تعالى:{قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ*يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ} .و قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ، فَيَنْظُرُ أَيْمَنَ مِنْهُ فَلاَ يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ مِنْ عَمَلِهِ، وَيَنْظُرُ أَشْأَمَ مِنْهُ فَلاَ يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَلاَ يَرَى إِلَّا النَّارَ تِلْقَاءَ وَجْهِهِ، فَاتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ " ، وعن معاذ بن جبل (رضي الله عنه)، أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال:(لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ مِنْ بَيْنِ يَدَيِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعٍ، عَنْ عُمْرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ، وَعَنْ جَسَدِهِ فِيمَا أَبْلَاهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ مَا عَمِلَ بِهِ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ، وَفِيمَا أَنْفَقَهُ).

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين، وصلاة وسلامًا على خاتم أنبيائه ورسله سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم)، وعلى آله وصحبه أجمعين.

إخوة الإسلام: اتقوا الله (عز وجل) ، واعلموا أنكم موقوفون بين يديه، ومن علم أنه موقوف، علم أنه مسئول، ومن علم أنه مسئول، فليعدّ للسؤال أمام الله جوابًا، واعلموا أن من حاسب نفسه في الدنيا خفّ عليه الحساب أمام الله (عز وجل) في الآخرة، وإن من ثمرات محاسبة النفس: أن يعلم العبد حجم تجارته مع ربه، ويتبين له ربحه من خسارته، فإن كان غافلًا فبادر بتعجيل التوبة الصادقة ؛ اغتنامًا لقول النبي (صلى الله عليه): (إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا).ومن ثمراتها: تزكية النفس وتطهيرها من كل الأمراض والأدران، فيتحقق للعبد الفلاح والنجاح، قال تعالى :(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا).ومن ثمراتها: التغيير نحو الأفضل والأحسن؛ فلا خير فيمن لا يستفيد من ماضيه ويتدارك أخطاءه، قال تعالى : (وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ)، فلا يكون الإقلاع عن الذنب في المستقبل إلا بمحاسبة النفس وتقويمها والأخذ بزمامها إلى مرضاة الله (عز وجل).

إذا مَا خلوت الدهر يوما فلا تقل ... خلوت ولكن قل علي رقيب

ولا تحسبن اللَّه يغفل ساعة ... ولا أن مَا يخفى عَلَيْهِ يغيب

"اللهم آت نفوسنا تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليه